

القرآن مضموناً ولغةً عاملاً جوهرى في وحدة الفكر بين العرب والمسلمين ... ولكن تعلم اللغات لا يزال الجسر الوحيد إلى العلم والمعرفة

الأستاذ خليل المنداوي

حلب (سوريا)

ومن هنا يأتي دور حماية اللغة العربية من
الاندثار ، كما اندثر الكثير من اخواتها الساميات في
سالف العصور .

ومثلاً على ذلك ، في حالة مد الإسلام حمل معه
اللغة العربية إلى الاقطار المفتوحة ، ونشرها واذاعها
حتى أصبحت اللغة الأولى فيها . وليس التأثير
الفارسي بها عتاً ببعيد ، فبلاد «فارس» بلاد بعيدة
كل البعد عن أن تكون قطراً من اقطار العرب ، ولكن
الإسلام ادناها من العرب ، وكان من الفرس ادباء
وعلماء وشعراء لا يقلون منزلة عن الادباء والعلماء
والشعراء في العرب ، وذلك لان الإسلام الفهم
وجمعهم على حب البيان العربي ، لانه بيان القران .

والفتح العربي - في حالة جزره - حين انحصر
من تلك الاقطار ابقى القران فيها علامة واضحة ،
وان لم يبق فيها كلفة متميزة .

وفي حالة استيلاء العثمانيين على الوطن العربي،
لم ينقل اللغة العربية من الاندثار إلا القرمان . لان
العثمانيين كانوا مسلمين ، والمسلم لا يستطيع ان
يناهض القرمان ، ما دام هو لغة دينه ! ولو ان الاحتلال
كان اجنبياً ، دينه غير دين الإسلام لكان ، هناك ،
كارثة زعمت اللغة العربية ، ولعل في قوله تعالى
ابلق معجزة : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له
لحافظون » .

وما دام الامر كذلك بالنسبة إلى الاعاجم فانه
سيكون اشد وقعا بالنسبة إلى الاقطار العربية التي
تتكلم اللغة العربية ، فهذه الاقطار - برغم وقوعها

لم يعرف دين من الاديان ذلك التلازم او
الارتباط مع دين اللغة التي نزل فيها ، او عبر بها من
المراضه ، كالاسلام .

وهو امر لا يحتاج إلى المناقشة ، مادام القرمان
الذي هو عمدة الإسلام ، يجعل بيانه احدى معجزاته .
وهو الذي تحدى العرب ، وهم في اوج فصاحتهم
المعبودة ، ان ياتوا بمثله ، او بسورة من سوره !

والبيان القرآني تفنن في تفهيمه ، وتوضيحه ،
وتعليقه اقطاب البلاغة في كل عصر ، وضربوا حوله
دراسات متنوعة ، وآخروهم عبد الرحمان الرافعي
- وهو من هو في عالم البيان - في كتابه « تاريخ
آداب العرب » اذ خصص جزءاً كاملاً من اجزائه الثلاثة
في دراسة بيان القرآن »

ولما انتشر الإسلام في ارض العرب وغير
العرب ، كان القرمان مصاحباً لهذا الانتشار ، لان
الإسلام ، من شعائره الأساسية ترديد آيات من القرمان
في كل صلاة ، والرجوع إلى القرمان في بيان الاحكام
والعبادات . فهو دستور كل مسلم - هربياً كان أو
اعجمياً -

ولذلك كان على كل من اتخذ الإسلام ديناً ان
يرجع إلى القرمان وان يردد بعض آياته في صلواته ،
وان لم يفهما ، وان يتفهم آيات منه للاطلاع على
حقيقة الإسلام .

الإسلام نفسه مظهر من مظاهر اللغة العربية ،
كما ان اللغة العربية وعاء من اوعية الإسلام ، فهما
متلازمان لا ينفصلان .

المصدر الذي انفصلت عنه . والشاهد على ذلك هذه الصحف والمجلات والإذاعات التي لا تحيد عن الفصحى . . ولن يكون ذلك اليوم الذي تتوحد فيه بعميد !

أما بالنسبة إلى اللهجة الإقليمية عندنا - في سورية - فهي من اللهجات التي يقل فيها البعد عن جوهر اللغة الأصلية باعتبار موقعها الوسيط بين الأقطار العربية . وما دخلها من حوشي الألفاظ ، والتواء التعابير إنما يضود إلى المهود المألوفة التي امتزجت فيها الأجنبية بالعربية ، نتيجة لضياع حريتها ، وإن لم تضع شخصيتها !

والآن، كيف يمكن أن نحدد المكانة التي يجب أن تحتلها العربية بالنسبة للغات الأجنبية ؟

لا تعصب إذا قلنا « العربية أولا ، ثم اللغات الأجنبية ثانياً » .

وإذا قدر لاسلافنا أن يطلعوا اطلاعاً ضيقاً على تراث الثقافات الأجنبية في عهدهم بواسطة الترجمة والنقل ، فإن تبدل الحياة وتطور العالم ، وتقدم العلم الذي لا وطن له يدمونا إلى عدم الاكتفاء بالعربية وحدها، ولنا أسوة في غيرنا الذين يتقنون على الأقل لغة أجنبية بجانب لغتهم ، وهم أقل حاجة إليها منا .

بينما نحن نحتاج إلى اللغات الأجنبية ، وسنظل نحتاج إليها زمناً طويلاً ، لأنها الآن تحمل عنوان الثقافة ، ولا تزال هي الجسر الوحيد إلى المعرفة ، وتطور العصر .

والذين يقولون بالاكتفاء باللغة العربية لأي سبب كان إنما يدموننا إلى عزلة ثقافية عن العالم . والعزلة الثقافية في حياة شعب إنما هي دمه عن ركب الحضارة ، حتى يفتت ، وبذوب كيانه ، ويتلاشى في مهبط الثقافات .

إننا لا نزال في دور التكوين : ودور التكوين يتميز بالاعتباس . ونحن سنجد أنفسنا وباتنا دورنا في المشاركة في الإبداع الحضاري ، تمود لغتنا إلى احتلال المكانة المرموقة بين لغات العالم . واللغة والثقافة اليوم هما توأمان لا ينفصلان .

تحت الحكم فير العربي - بقي وميها الإسلامي ، ووازعها الديني يربطانها باللغة العربية . وكثيراً ما تقلصت اللغة العربية في بعض المجالات ، كالدواوين والمدارس التي جعلت اللغة التركية اللغة الأولى، إلا أنها ثبتت كلفة للتعبير ، وظل القراءان النغمة (أو القرار) الذي يتردد كل يوم في الجوامع والبيوت ، وفي كل مكان ، مما جعل العرب يرتبطون بلغتهم ارتباطاً دينياً مقدساً .

وغداة الوهي القومي الذي انتشر ، وذيوع التعليم عادت اللغة العربية إلى وجودها المستقل وشخصيتها المتميزة .

أما مدى تأثير الفكر الإسلامي ، من طريق لغة القراءان ، في الأقطار الإسلامية غير العربية ، فهو ظاهر في صلب هذه اللغات نفسها، وفي شكل حروفها التي لا تختلف من الحروف العربية . حتى دخل في فنونها، ورسم خطوطها، فقبل « الخط الفارسي » ، والخط العثماني أو الخط الرقعي ، كما قبل الخط الكوفي ، وقد تجردت اللغة التركية على الحرف العربي لعوامل سياسية .

أوليس ، بعد ذلك ، من معجزة اللغة العربية أن الجاليات الإسلامية ، في الأقطار الغربية، أو الآسيوية، أو الأفريقية أبقت نفس اللغة ؟ وقد تختلف اللهجات الدارجة ، ولكن لا يختلف سواء التعبير الفصح ، لأن القراءان هو الذي جمعها على وحدة التعبير ، والكتابة بالفصحى التي هي لغة القراءان ؟

وما ذلك إلا لأن القراءان يوحد بينها ، ويجمع بينها . فالشاعر العربي - في كل قطر - يتخذ لنفسه الشكل العربي التقليدي نفسه ، والكاتب يكتب لكل من يقرأ العربية بلغة القراءان نفسها .

أما بقية اللهجات واللغات الإقليمية فأمر انتشارها يمود إلى زمان انقطعت فيه أواصر الاجتماع، وجفت موارد اللغة ، وفشت الأعجمية : حتى بات لكل قطر لهجة ، ولكل ثوب رقعة ! وقد تتقارب هذه اللهجات ، وقد تتباعد عن الأصل بحسب مواضعها ومواقعها من الكلام .

ولكن هذه اللهجات صائرة حتماً إلى أن تنصهر وتتهلج وتنقى بفضل التلم والوحي ، حتى تعود إلى